خطأ عقيدة الحبل بلا دنس

القدّيس يوحنا مكسيموفيتش

"غَيْرَةٌ لله ولكن ليس حَسَبَ المَعرفة" (رومية 10: 2)

بعد أن وُبِّخَ أولئك الذين انتقدوا الحياة النقيَّة التي عاشَتْها العذراء الفائقة القداسة، وكذلك أولئك الذين أنكَروا بتوليّتها الدائمة، وأيضًا الذين أنكَروا كرامتها كوالدةٍ للإله، والذين احتقروا أيقوناتها، وعندما أضاء مجدُ والدة الإله الكونَ كلَّه، ظهرَ تعليمٌ يبدو أنَّه يُمجِّد العذراء مريم ويُعَلِّيها، لكنّه في الواقع يُنكِر كلّ فضائلها.

يُسمّى هذا التعليم "الحبل بلا دنس بالعذراء مريم"، وقد قبِلَه أتباعُ الكرسيّ البابويّ في روما. يقول هذا التعليم إنّ "العذراء مريم الكلّيّة الطوبى، في اللّحظة الأولى للحبل بها، وبفضل نعمة الله الكلّيّ القدرة وامتيازٍ خاصٍّ بها، ومن أجل أن تكون مستحقّةً مستقبَلًا ليسوع المسيح مخلّص الجنس البشريّ، حُفِظَت من كلِّ وصمة الخطيئة الأصليّة" (مرسوم البابا بيوس التاسع حول العقيدة الجديدة). بعبارةٍ أخرى، حُفِظَت والدة الإله في لحظة الحبل بها من الخطيئة الأصليّة؛ وبنعمة الله، وُضِعَت في حالةٍ يستحيل عليها فيها أن ترتكب خطايا شخصيّة.

لم يكن المسيحيّون قد سمعوا بهذا الأمر قبل القرن التاسع، حين عبّرَ للمرّة الأولى باشاسيوس رادْبِرتوس، رئيس دير كورڤي، عن الرأي القائل إنّ العذراء القدّيسة حُبِلَ بها بلا خطيئةٍ أصليّة. وابتداءً من القرن الثاني عشر، بدأت تنتشر هذه الفكرة بين الإكليروس والرعيّة في الكنيسة الغربيّة، التي كانت قد انفصلَتْ عن الكنيسة الجامعة ففقدَتْ نعمة الروح القدس.

مع ذلك، لم يتّفق جميع أعضاء الكنيسة اللاتينيّة مع التعليم الجديد. كان ثمّة اختلافٌ بين أشهر اللاهوتيّين الغربيّين، أي بين أعمدة الكنيسة اللاتينيّة، إذا جاز التعبير. فقد انتقد توما الأكوينيّ وبرنارد دي كليرڤو (Bernard de Clairvaux) بشدّةٍ هذا التعليم، بينما دافع عنه دونز سكوتوس (Duns Scotus). وانتقل هذا الانقسام من المعلّمين إلى تلاميذهم: فقد بشّرَ الرهبان الدومينيكان اللّاتين، بعد معلّمهم توما الأكوينيّ، ضدّ

تعليم الحبل بلا دنس، بينما سعى الفرانسيسكان أتباع دونز سكوتوس، إلى غرسِه في كلّ مكان. استمرّت المعركة بين هذَين التيّارَين قرونًا عدّة. وضمَّ الجانبان أشخاصًا كانوا يُعتبَرون من أعظم المراجع الكاثوليكيّة.

لم يساعد أحدٌ في حسم المسألة، لأنّ أشخاصًا عدّة أعلنوا أنّهم تلقّوا رؤيا من العلاء بهذا الشأن. فقد كتبت الراهبة بريجيت [السويديّة]، المشهورة في القرن الرابع عشر بين الكاثوليك، عن ظهوراتِ والدة الإله لها، والتي أخبرتها بنفسها أنّه حُبِلَ بها بلا دنس، بلا خطيئةٍ أصليّة. غير أنّ معاصِرتها كاترين من سيينا التي كانت ناسكةً أشهر، أكّدت أنّ العذراء القدّيسة كانت، عند الحبل بها، مشمولةً بالخطيئة الأصليّة، وقد تلقَّتْ [كاترين] رؤيا بهذا الشأن من المسيح نفسه[1].

هكذا، ولفترةٍ طويلة، لم تستطِع الرعيّة اللاتينيّة أن تُميِّز الحقيقة، لا على أساس الكتابات اللاهوتيّة، ولا على أساس الظهورات المتناقضة. وظلّ الباباوات الكاثوليك حتّى سيكستوس الرابع (نهاية القرن 15م) بعيدين عن هذه الخلافات. هذا البابا هو الذي وافق في العام 1475 على خدمةٍ جرى فيها التعبير بوضوحٍ عن تعليم الحبل بلا دنس؛ وبعد سنواتٍ عدّة، حظّرَ إدانة أولئك الذين آمنوا بالحبل بلا دنس. مع ذلك، لم يكن سيكستوس الرابع قد قرّر بعدُ أن يؤكّد أنَّ هذا هو التعليم الثابت للكنيسة؛ ولذلك، مع أنّه حظّرَ إدانة أولئك الذين آمنوا بالحبل بلا دنس، فإنّه لم يدِنْ أولئك الذين لم يؤمنوا به.

في غضون ذلك، اكتسبَ تعليمُ الحبل بلا دنس المزيدَ من الأنصار بين أعضاء الكنيسة الكاثوليكيّة. وكان السبب في ذلك هو أنّه بدا أكثرَ تقوىً وإرضاءً لوالدة الإله أن تُمنَح أكبر قدرٍ ممكنٍ من المجد. إنّ الأمر الذي جعلَ هذا التعليمَ، الذي عبّرَ عنه باشاسيوس رادْبرتوس في القرن التاسع، يصيرُ الاعتقادَ العامّ للكنيسة اللاتينيّة في القرن التاسع عشر، هو سعي الناس إلى تمجيد الشفيعة السماويّة من جهةٍ، وانحراف اللاهوتيّين الغربيّين إلى تخميناتٍ مجرّدةٍ أنتجتْ حقيقةً ظاهريّةً فقط (السكولاستيكيّة) من جهةٍ أخرى؛ أضِفْ إليهما مناصرة الباباوات بعد سيكستوس الرابع لهذا الرأي. لم يبقَ سوى إعلان ذلك على نحوٍ قاطعٍ كتعليمٍ للكنيسة، وهو ما فعله البابا بيوس التاسع خلال خدمةٍ احتفاليّةٍ في 8 كانون الأوّل 1854، حين أعلن أنّ الحبَل بلا دنس بالعذراء الفائقة القداسة هو عقيدةٌ في الكنيسة الكاثوليكيّة. وبذلك، أضافت الكنيسة الكاثوليكيّة انحرافًا آخر عن

[1] انظر كتاب "الاختلافات في التعليم حول والدة الإله الفائقة القداسة بين كنيستَي الشرق والغرب" للأرشمندريت أ. ليبيديف.

التعليم الذي كانت تعترف به عندما كانت عضوًا في الكنيسة الرسوليّة الجامعة، انحرافًا عن الإيمان الذي حافظَت عليه الكنيسة الأرثوذكسّية حتّى الآن من دون تغييرٍ أو تبديل. أرضى إعلانُ العقيدة الجديدة الجموعَ الكبيرة المنتمية إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، التي اعتقدت ببساطةِ قلبٍ أنّ إعلان التعليم الجديد في الكنيسة سيُقدّم مجدًا أكبر لوالدة الإله، وأنّهم كانوا يقدّمونه لها بمنزلة هديّة. وأرضى أيضًا غرور اللاهوتيّين الغربيّين الذين دافعوا عنه وعمِلوا عليه. ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّه، هو أنّ إعلان العقيدة الجديدة كان مفيدًا للبابا الكاثوليكيّ نفسه، لأنّه، بإعلانه العقيدة الجديدة بسُلطته الخاصّة، ولو بعد استماعٍ إلى آراء أساقفة الكنيسة، خصَّ نفسه علنًا بالحقّ في تغيير تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة، ووَضَعَ صوته فوق شهادة الكتاب المقدّس والتقليد. وكان الاستنتاج المباشر من هذا هو أنّ الباباوات معصومون في مسائل الإيمان، الأمر الذي أعلنه هذا البابا بيوس التاسع نفسه عقيدةً للكنيسة الكاثوليكيّة في العام 1870.

إذًا، تغيّرَ تعليمُ الكنيسة الغربيّة بعد خروجها من الشركة مع الكنيسة الحقيقيّة. وأدخلت تدريجيًّا تعاليم أحدث، ظنًّا منها أنّها تُمجِّدُ الحقّ أكثر، ولكنّها كانت في الواقع تُشوّهه. بينما تعترف الكنيسة الأرثوذكسيّة بتواضعٍ بما تلقّته من المسيح والرسل، تجرؤ الكنيسة الكاثوليكيّة على الإضافة إليه، أحيانًا من غيرةٍ ليست "حسب المعرفة" (راجع رو 10: 2)، وأحيانًا بالانحراف إلى الخرافات وإلى تناقضات "العلم الكاذب" (1 تي 6: 20). ليس الأمر خلاف ذلك. إنّ الوعد القائل إنّ "أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة" (مت 16: 18) موعودٌ به فقط للكنيسة الحقيقيّة الجامعة؛ أمّا الذين سقطوا منها فيتحقّق فيهم الكلام القائل: "كما أنّ الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته إن لم يثبتْ في الكرمة، كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبُتوا فيّ" (يو 15: 4).

صحيحٌ أنّ تعريف العقيدة الجديدة نفسه يقول إنّه لا يجري تأسيس تعليمٍ جديد، بل مجرّد إعلان ما كان موجودًا دائمًا في الكنيسة وما تمسّكَ به العديد من الآباء القدّيسين، ويستشهد بمقتطفاتٍ من كتاباتهم، لكنّ المراجع المذكورة كافّةً تتحدّث فقط عن القداسة السامية للعذراء مريم، وعن نقاوتها، وتمنحُها أسماء مختلفةً تُحدّد نقاوتها وقوّتها الروحيّة؛ ولا يوجد في أيّ مكانٍ أيّة كلمةٍ عن طهارة الحبَل بها. وفي الوقت عينه، يقول هؤلاء الآباء القدّيسون أنفسهم في أماكن أخرى إنّ يسوع المسيح وحده هو الطاهر تمامًا من كلّ خطيئة، بينما جميع البشر المولودين من آدم قد حملوا جسدًا خاضعًا لناموس الخطيئة.

لا أحد من الآباء القدّيسين القدماء يقول إنّ الله طهَّرَ العذراء مريم بطريقةٍ مُعجزةٍ فيما كانت لا تزال في الرحم؛ ويشير كثيرون مباشرةً إلى أنّ العذراء مريم حاربت الخطيئة مثل جميع البشر، لكنّها انتصرت على التجارب وخلّصَها ابنُها الإلهيّ.

يقول مفسِّرو المذهب اللاتينيّ، هم أيضًا، إنّ العذراء مريم قد خلّصَها المسيح، لكنّهم يفهمون ذلك بمعنى أنّ مريم حُفِظَتْ من وصمة الخطيئة الأصليّة لكي تكون مستحقّةً المسيح مستقبَلًا (مرسوم عقيدة الحبل بلا دنس). وفقًا لتعليمهم، تلقّت العذراء مريم مسبقًا، إذا جاز التعبير، الهِبة التي جلبها المسيحُ للبشر بآلامه وموته على الصليب. علاوةً على ذلك، عند حديثهم عن عذابات والدة الإله التي كابدَتْها عند صليب ابنها الحبيب، والأحزان الأخرى التي ملأت حياتها، يعتبرون هذه الآلام إضافةً إلى آلام المسيح، ويعتبرون مريم شريكةً له في فدائنا.

وفقًا لتفسير اللاهوتيّين اللّاتين، "مريم هي شريكةٌ مع فادينا باعتبارها شريكةً في الفداء (Co-Redemptress)"[2]. "هي ساعدت المسيحَ في عمل الفداء بطريقةٍ معيّنة" (تعاليم الدكتور فايمار). يكتب الدكتور لينتز (Lentz) قائلًا: "لم تتحمّل والدة الإله عبءَ استشهادها بشجاعةٍ فحسب، بل بفرحٍ أيضًا، وإن كان بقلبٍ مكسور" (ماريولوجيا الدكتور لينتز). لهذا السبب، هي "مُكمِّلٌ للثالوث القدّوس"، و"كما أنّ ابنها هو الوحيد الذي اختاره الله وسيطًا بين جلاله الذي أُسيءَ إليه والبشر الخاطئين، كذلك تمامًا، العذراء المباركة هي الوسيطة الرئيسة التي وضعَها بين ابنه وبيننا". "في ثلاثة جوانب -كابنة، وأمٍّ، وزوجةٍ لله- رُفِعَت العذراء القدّيسة إلى مساواةٍ معيّنةٍ مع الآب، وإلى تفوّقٍ معيّنٍ على الابن، وإلى قُربٍ معيّنٍ من الروح القدس" ("الحبل بلا دنس"، مالو أسقف بروج).

إذًا، وفقًا لتعليم ممثّلي اللاهوت اللاتينيّ، وُضِعَت العذراء مريم في عمل الفداء جنبًا إلى جنبٍ مع المسيح نفسه، ورُفِعَت إلى مساواةٍ مع الله. لا يمكن للمرء أن يذهب أبعد من ذلك. ومع أنّ هذا التعليم لم يُصَغْ بعد بصورةٍ نهائيّةٍ كعقيدةٍ للكنيسة الكاثوليكيّة، فإنّ البابا بيوس التاسع، الذي خطا الخطوة الأولى في هذا

[2] انظر ليبيديف، المرجع نفسه، ص 273.

الاتّجاه، قد أظهرَ الاتّجاه لتطويرٍ أكبر للتعليم المعترَف به عمومًا في كنيسته، وأكّدَ على نحوٍ غير مباشر التعليمَ المذكور أعلاه عن العذراء مريم.

إذ تسعى الكنيسة الكاثوليكيَّة لتمجيد العذراء الفائقة القداسة، هي تسير في طريق تأليهها الكامل. وإذا كانت سلطاتُها تُسمّي مريم حتّى الآن مُكمِّلةً للثالوث القدّوس، يتوقّع المرء أن تُبجَّلَ العذراء قريبًا مثل الله. دخلَت هذا المسارَ نفسه مجموعةٌ من المفكّرين الذين ينتمون في الوقت الحاضر إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، لكنّهم يبنون نظامًا لاهوتيًّا جديدًا أساسُه التعليم الفلسفيّ عن الحكمة باعتبارها قوّةً خاصّةً تربط الألوهةَ بالخليقة. كذلك، يُطوّرون التعليم المتعلّق بكرامة والدة الإله، رغبةً منهم في أن يروا فيها جوهرًا هو نوعًا من نقطة وسطٍ بين الله والإنسان. في بعض المسائل هم أكثر اعتدالًا من اللاهوتيّين اللّاتين، ولكن في مسائل أخرى -إن سمحتُم لي- لقد تجاوزوهم بالفعل. وبينما يُنكِرون تعليم الحبل بلا دنس والتحرُّر من الخطيئة الأصليّة، فإنّهم ما زالوا يُعلِّمون عن تحرُّر العذراء الكامل من أيّة خطايا شخصيّة، ويرون فيها وسيطًا بين البشر والله، مثل المسيح: في شخص المسيح، ظهرَ على الأرض الشخصُ الثاني من الثالوث القدّوس، الكلمة الأزليّ، ابن الله؛ بينما تجلّى الروح القدس من خلال العذراء مريم.

على حدّ تعبير أحد ممثّلي هذا الاتّجاه، عندما حلَّ الروح القدس على العذراء مريم، اكتسبَتْ "حياةً ثنائيّة، بشريّة وإلهيّة؛ أي تألّهت تمامًا، لأنّه تجلّى في كيانها الأقنوميّ استعلانُ الروح القدس، استعلانه الحيّ والخالق"[3] . "هي تجلٍّ مثاليّ للأقنوم الثالث"[4] ، "مخلوقةٌ، لكنّها أيضًا لم تعُدْ مخلوقة"[5]. يُلاحَظُ هذا التطلُّع نحو تأليه والدة الإله في الغرب بالدرجة الأولى، ويُقابله رفضٌ كبيرٌ من قبل طوائف بروتستانتيّةٍ مختلفة، إلى جانب الفروع الرئيسيّة للبروتستانتيّة واللوثريّة والكالفينيّة، لتبجيل والدة الإله واستدعائها في الصلاة.

ولكن، يمكننا القول بكلمات القدّيس إبيفانيوس القبرصيّ: "ثمّة ضررٌ متساوٍ في هاتين البدعتين كلتيهما، أي عندما يُقلّل الناس من شأن العذراء، وأيضًا عندما يُمجّدونها بما يتجاوز اللّائق"[6]. يَدينُ هذا الأب القدّيس

[3] الأرشمندريت سيرجي بولغاكوف، "العلّيقة غير المحترقة"، 1927، ص 154.

[4] المرجع نفسه، ص 175.

[5] ص 191.

[6] كتاب البناريون، "ضدّ المريميّين".

أولئك الذين يقدّمون لها عبادةً شبه إلهيّة، فيقول: "فلْتُكرَّمْ مريم، وأمَّا العبادة فلْتُقدَّم للربّ"[7]. ويضيف: "على الرَّغم من أنَّ مريم هي إناءٌ مُختار، فقد كانت امرأةً بالطبيعة ولا تختلف على الإطلاق عن الآخرين. ومع أنَّ تاريخ مريم والتقليد يرويان أنَّه قيل لوالدها يواكيم في الصحراء: "لقد حبلَت زوجتك"، فهذا لم يجرِ إلّا من خلال اتّحادٍ زوجيّ، وليس من دون بذرة رجل"[8]. "لا ينبغي تبجيل القدّيسين فوق ما هو لائق، بل ينبغي تبجيل سيّدهم. مريم ليست الله، ولم تتلقَّ جسدًا من السماء، بل من اجتماعِ رجلٍ وامرأة؛ ووفقًا للوعد، مثل إسحق، أُعِدَّتْ للمشاركة في التدبير الإلهيّ. ولكن، من ناحيةٍ أخرى، لا يجرؤَنَّ أحدٌ بغباوةٍ على الإساءة إلى العذراء القدّيسة"[9].

تُمجِّدُ الكنيسة الأرثوذكسيَّة والدة الإله وتُعلّيها في تسابيحها، لكنَّها لا تجرؤ على أن تنسِبَ إليها ما لم يُنقَلْ عنها في الكتاب المقدَّس أو التقليد. "الحقيقة لا تبالِغ، وفي الوقت عينه، لا تُقلِّل من الشأن. إنّها تمنح كلَّ شيءٍ مقياسًا مناسبًا ومكانًا مناسبًا" (الأسقف إغناطيوس بريانشنينوف)[10]. لقد مجَّدَ آباء الكنيسة طهارة العذراء مريم واحتمالها الرجوليّ للأحزان في حياتها الأرضيَّة، لكنّهم، من ناحيةٍ أخرى، رفضوا أن تكون وسيطةً بين الله والبشر بمعنى الفداء المشترَك لجنس البشر. وقد تحدَّث القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان عن استعدادها للموت مع ابنها والتألُّم معه من أجل خلاص الجميع، فقال هذا الأب المشهور في الكنيسة الغربيّة: "ولكنّ آلام المسيح لم تحتَجْ إلى أيَّة مساعدة، كما سبق فقال الربُّ نفسه منذ زمنٍ طويل [في نبوءة إشعياء]: "نظرتُ فلم يكن مُعينٌ، وتحيَّرتُ إذ لم يكن عاضدٌ. فخلَّصَتْ لي ذراعي" (إشعياء 63: 5)[11].

يُعلِّمُ هذا الأب القدِّيس نفسُه بخُصوص شموليَّة الخطيئة الأصليَّة، والتي يُعتبَرُ المسيحُ وحده استثناءً منها. يقول: "من بين جميع المولودين من النساء، لا يوجد إنسانٌ مقدَّسٌ تمامًا، باستثناء الربّ يسوع المسيح الذي

[7] المصدر عينه.

[8] المصدر عينه.

[9] القدّيس إبيفانيوس، "ضدّ الأنتيديكوماريون" [مجموعة كانت تعارض عذريّة مريم بعد الولادة وتقول إنها أنجبت أولادًا آخرين من يوسف].

[10] أعلنت قداسته في العام 1988 أي بعد كتابة هذه الدراسة (المترجم).

[11] القدّيس أمبروسيوس، "في تربية العذراء ودوام بتوليّة مريم القدّيسة"، الفصل 7.

لم يختبر دنَسًا أرضيًّا، بطريقةٍ جديدةٍ خاصّةٍ هي ميلادٌ طاهر".[12] ويضيف: "الله وحده بلا خطيئة. كلُّ مَن وُلِدَ بالطريقة المعتادة من امرأةٍ ورجل، أي من اتِّحادٍ جسديّ، يصير مُذنِبًا بارتكابه الخطيئة. وبالتالي، فإنَّ مَن ليست لديه خطيئةٌ لم يُحبَلْ به بهذه الطريقة"[13]. ويقول أيضًا: "رجلٌ واحدٌ فقط، الوسيط بين الله والإنسان، هو خالٍ من قيود الميلاد المُفضي إلى الخطيئة، لأنّه وُلِدَ من عذراء، ولأنّه في ولادته لم يختبرْ لمسة الخطيئة".[14]

كتبَ المغبوط أوغسطين، وهو معلِّمٌ آخر ذائع الصيت في الكنيسة ومُكرَّمٌ تكريمًا خاصًّا في الغرب، قائلًا: "أمَّا بالنسبة إلى الرجال الآخرين، وباستثناء مَن هو حجر الزاوية، فلا أرى لهم أيَّة وسيلةٍ أخرى ليُصبحوا هياكلَ لله ومساكنَ له بخلاف إعادة الولادة الروحيَّة، التي يجب أن يسبقها تمامًا الميلادُ الجسديّ. لذا، حتَّى لو فكَّرْنا في الأطفال الذين في رحم الأمّ، وفي كلام الإنجيليّ المقدَّس القائل عن يوحنَّا المعمدان إنَّه ارتكضَ من الفرح في رحم أمه (الأمر الذي حدثَ بفِعل الروح القدس)، وفي كلام الربّ نفسِه الموجَّه إلى إرميا: "قبلَما صوَّرتُكَ في البطن عرفتُكَ، وقبلما خرجتَ من الرَّحم قدَّستُكَ" (إرميا 1: 5) – لو أعطَتْنا هذه كلُّها أساسًا للاعتقاد بأنَّ الأطفال يمكنهم أن يتقدَّسوا في هذه الحالة بشكلٍ ما، فإنَّه لا يمكن الشكّ في أيّة حالٍ بأنَّ التقديس الذي به نصبح جميعنا هيكلًا لله، معًا وكلّ واحدٍ على حِدة، ممكنٌ فقط لأولئك الذين يولَدون من جديد، وإعادة الولادة تفترض دائمًا الميلاد. فقط أولئك الذين وُلِدوا يمكنهم أن يتَّحدوا بالمسيح، وأن يتَّحدوا بهذا الجسد الإلهيّ الذي يجعل كنيسته الهيكلَ الحيّ لجلال الله".[15]

يشهد كلام معلّمي الكنيسة القدماء المذكور أعلاه أنَّه في الغرب نفسه، رُفِضَ سابقًا التعليم المنتشر هناك الآن. بعد سقوط الكنيسة الغربيَّة، كتب "برنارد" الذي يُعترَفُ به في الغرب كمرجعيَّةٍ عظيمة، فقال: "أنا خائفٌ الآن، أرى أنَّ بعضكم يرغب في تغيير حالة المسائل المهمَّة، وإدخال عيدٍ جديدٍ ليس معروفًا لدى الكنيسة، ولا يوافق عليه العقل، ولا يُبرِّره التقليد القديم. هل نحن حقًّا أكثر تعلُّمًا وتقوى من آبائنا؟ ستقولون:

[12] القدّيس أمبروسيوس، تعليق على لوقا، الفصل 2.

[13] القدّيس أمبروسيوس، عن أوغسطين، "في الزواج والشهوة".

[14] القدّيس أمبروسيوس، المرجع عينه، الكتاب 2: "ضدّ يوليانوس".

[15] المغبوط أوغسطين، الرسالة 187.

"يجب تمجيد والدة الإله بأكبر قدرٍ ممكن". هذا صحيح، لكنّ التمجيد الممنوح لملكة السماء يتطلّب تمييزًا. لا تحتاج هذه العذراء الملِكة إلى تمجيداتٍ كاذبة، فهي تمتلك تيجانَ مجدٍ حقيقيّةً وسِماتَ الكرامة. مجِّدوا طهارة جسدها وقداسة حياتها. تعجَّبوا من وفرة العطايا الممنوحة لهذه العذراء؛ بَجِّلوا ابنها الإلهيّ؛ أَعلوا مَن حَبِلَتْ من دون أن تعرف شهوةً وأنجبَتْ من دون أن تعرف ألمًا. ولكن ما الذي نحتاج إلى أن نُضيفه إلى هذه الكرامات؟ يقول الناس إنَّه يجب تبجيل الحبَل الذي سبقَ الميلادَ المجيد؛ لأنَّه لو لم يسبق الحبَل، لما كان الميلاد مجيدًا. ولكن، ماذا سيقول المرء إذا طالبَ أيُّ شخص، للسبب عينه، بالنوع عينه من التبجيل لوالد مريم القدّيسة ووالدتها؟ وقد يطالب المرء بالأمر عينه لأجدادها وأجداد أجدادها، إلى ما لا نهاية. علاوةً على ذلك، كيف لا تكون خطيئةٌ في المكان الذي كانت فيه شهوة؟ لا تقُلْ على الإطلاق إنَّ العذراء القدّيسة حُبِلَ بها من الروح القدس وليس من رجل. أقولُ على نحوٍ قاطعٍ إنَّ الروح القدس حلَّ عليها، ولم يأتِ معها".

"أقول إنَّ العذراء مريم لم يكن من الممكن أن تتقدَّس قبل الحبَل بها، لأنَّها لم تكن موجودة. فإذا لم تتمكّن من التقدُّس في لحظة الحبَل بها بسبب الخطيئة التي لا تنفصلُ عن الحبَل، يبقى أن نؤمن بأنَّها تقدَّست بعد الحبَل بها في رحم أمّها. هذا التقدُّس، إذا كان يُبيدُ الخطيئة، فإنَّه يجعل ولادتها هي المقدَّسة لا الحبل بها. لا أحد قد مُنِحَ الحقّ في أن يُحبَلَ به في قداسة؛ فقط الربّ المسيح حُبِلَ به من الروح القدس، وهو وحده مقدَّسٌ منذ الحبل به. باستثنائه، يجب أن يُشارَ إلى جميع نسل آدم بما يقوله واحدٌ من هذا النسل عن نفسه [النبيّ داود]، بدافع التواضع واعترافًا بالحقيقة: "هأنذا بالآثام قد حُبِلَ بي" (مزمور 50: 7). كيف يمكن للمرء أن يطلب أن يكون هذا الحبَلُ مقدَّسًا، بينما لم يكن من عمل الروح القدس، وجاء أيضًا من شهوة؟ بالطبع، ترفض العذراء القدّيسة ذلك المجد الذي، على ما يبدو، يُمجّد الخطيئة. لا يمكنها بأيّة حالٍ من الأحوال تبرير بدعةٍ ابتُكِرَت خلافًا لتعليم الكنيسة، بدعةٍ هي أمٌّ للتهوّر، وأختٌ للكفر، وابنةٌ للاستخفاف"[16]. يكشف الكلام المذكور أعلاه بوضوحٍ بدعة العقيدة الجديدة التي وضعَتْها الكنيسة الكاثوليكيّة ولامعقوليّة هذه العقيدة.

[16] برنارد، الرسالة 174؛ مقتبسة من ليبيديف مع أقوال المغبوط أوغسطين.

إنَّ التعليم عن التنزُّه الكامل لوالدة الإله عن الخطيئة (1) لا يتوافق مع الكتاب المقدَّس، حيث يُذكَرُ مرارًا أنّ المنزّه عن الخطيئة هو "الوسيط الواحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (1تي 2: 5)؛ "الذي ليس فيه خطيئة" (1يو 3: 5)؛ "الذي لم يفعلْ خطيئة، ولا يوجد في فمِه مكرٌ" (1بط 2: 22)؛ "المجرَّب في كلِّ شيءٍ مثلنا بلا خطيئة" (عب 4: 15)؛ "جعل الذي لم يعرف خطيئة، خطيئةً لأجلنا" (2كو 5: 21). أمّا عن بقيّة البشر فيُقال: "مَن يُخرِجُ الطاهرَ من النجِس؟ لا أحد!" (أيوب 14: 4). "ولكنّ الله بيَّنَ محبّته لنا، لأنّه ونحن بعد خطأةٌ ماتَ المسيح لأجلنا... لأنَّه إنْ كنّا ونحن أعداءٌ قد صولِحنا مع الله بمَوت ابنه، فبالأولى كثيرًا ونحن مُصالَحون نخلُص بحياته!" (رو 5: 8-10).

(2) يتعارض هذا التعليم أيضًا مع التقليد المقدَّس الموجود في العديد من الكتابات الآبائيَّة، حيث تُذكَرُ القداسة السامية للعذراء مريم منذ ولادتها، وكذلك تطهيرها بالروح القدس عند حبلها بالمسيح، ولكن ليس عند الحبل بها هي نفسها من قبل حنّة. "ليس أحدٌ بريئًا من الدنَس أمامك، ولو كانت حياته يومًا واحدًا، إلَّا أنتَ وحدكَ، يا يسوع المسيح ربَّنا الذي ظهرتَ على الأرض بلا خطيئة. وبكَ نرجو جميعًا أن ننالَ الرحمة وغفران الخطايا" (القدّيس باسيليوس الكبير، الإفشين السادس من صلاة السجدة مساء عيد العنصرة). "ولكن عندما جاء المسيح من خلال أمٍّ طاهرة، عذراء، غير متزوّجة، خائفةٍ لله، غير مدنَّسة، من دون زواجٍ ومن دون أب، وبقدر ما كان مناسبًا له أن يولد، طهَّرَ الطبيعة الأنثويَّة، وأبطلَ حوَّاءَ المريرة، وأطاح بقوانين الجسد"[17]. مع ذلك، حتَّى في ذلك الحين، لم توضَع العذراءُ في حالةِ عدم القدرة على الخطيئة، بل استمرّت في الاهتمام بخلاصها وتغلّبت على جميع التجارب، على حدِّ قول القدّيسين باسيليوس الكبير ويوحنّا الذهبيّ الفم.[18]

(3) إنّ التعليم القائل إنَّ والدة الإله تطهَّرَتْ قبل ولادتها لكي يولدَ منها المسيحُ الطاهر، هو تعليمٌ لا معنى له؛ لأنَّه إذا لم يكن ممكنًا أن يولد المسيحُ الطاهر إلَّا إذا وُلِدَت العذراء طاهرة، فسيكون من الضروريّ أن يكون والداها أيضًا طاهرَين من الخطيئة الأصليَّة، وهما بدورهما يجب أن يولَدا من والدَين مطهَّرين. وهكذا، بالاستمرار في هذا الاتّجاه، سيَتعيَّنُ على المرء أن يصِلَ إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ المسيح لا يمكنه أن يتجسَّد

[17] القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ، "في مدح البتوليّة".

[18] القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، تعليق على يوحنّا، العظة 85؛ القدّيس باسيليوس الكبير، الرسالة 160.

إلَّا إذا كان جميعُ أسلافه بالجسد، وصولاً إلى آدم، قد طُهِّروا مسبقًا من الخطيئة الأصليَّة. ولكن، حينئذٍ، لن تكون هناك حاجةٌ إلى تجسُّد المسيح نفسه، حيث أنَّ المسيح نزل إلى الأرض ليُزيلَ الخطيئة.

(4) إنَّ تعليم أنّ والدة الإله قد حُفظِتْ من الخطيئة الأصليّة، وكذلك تعليم أنَّها حُفِظَت بنعمة الله من الخطايا الشخصيَّة، يجعل الله غير رحيمٍ وغير عادل؛ لأنَّه إذا كان الله يستطيع أن يحفظَ مريم من الخطيئة ويُطهِّرها قبل ولادتها، فلماذا لا يُطهِّر سائر البشر قبل ولادتهم، بل يتركهم في الخطيئة؟ ويترتَّب على ذلك أيضًا أنَّ الله يخلِّص البشرَ بمعزلٍ عن إرادتهم، مُعيِّنًا أشخاصًا محدَّدين، قبل ولادتهم، للخلاص.

(5) هذا التعليم، الذي يبدو أنّه يهدف إلى تبجيل والدة الإله، يُنكِرُ في الواقع فضائلها كلّها. فإذا كانت مريم، حتَّى في رحم أمها، عندما لم تستطع حتَّى أن ترغب في أيِّ خيرٍ أو شرّ، قد حُفِظَتْ بنعمة الله من كلِّ دنَس، ثمَّ بهذه النعمة حُفِظَتْ من الخطيئة حتَّى بعد ولادتها، ففي ماذا تكمن استحقاقاتها؟ إذا كان يمكن وضعُها في حالةِ عدم القدرة على الخطيئة، ولم تخطأ، فلماذا مجَّدَها الله؟ إذا بقيَتْ طاهرةً من دون أيِّ جهد، ولم تملك أيَّة نزعةٍ تدفعها إلى الخطيئة، فلماذا تُوِّجَتْ أكثر من أيِّ شخصٍ آخر؟ لا يوجد انتصارٌ من دون خصم.

تجلَّى برُّ العذراء مريم وقداستها في أنَّها، كونها "بشرًا لها أهواءٌ مثلنا"، أحبَّت الله كثيرًا وأسلمَتْ ذاتها له، حتَّى إنَّها بِطَهارتِها رُفِعَتْ فوق سائر الجنس البشريّ. لهذا، وإذ عُرِفَتْ واختيرَت مسبقًا، خُصَّتْ بتطهير الروح القدس الذي حلَّ عليها، وبأن تحبَلَ منه بمخلِّص العالم نفسه. إنَّ تعليم تنزُّه العذراء مريم عن الخطيئة بنعمة الله يُنكِر غلبتها على التجارب؛ ويحوِّلُها من منتصرٍ يستحقُّ أن يتوَّج بتيجان المجد، إلى آلةٍ صمّاء لعناية الله.

ليس هذا تمجيدًا وشرفًا أعظم، بل هو تقليلٌ من شأنها، بهذه "الهديَّة" التي منحها لها البابا بيوس التاسع والآخرين الذين يعتقدون أنَّهم يستطيعون تمجيد والدة الإله بالبحث عن حقائق جديدة. لقد مجَّدَ الله نفسُه مريم الفائقة القداسة؛ إنَّ حياتها على الأرض ومجدها في السماء مُعظَّمان إلى درجة أنَّ الابتداعات البشريَّة لا يسعُها أن تضيف شيئًا إلى كرامتها ومجدها. وما يبتدعه الناس إنَّما يحجب وجهَها عن أعينهم. كتب الرسول بولس بالروح القدس قائلًا: أيُّها الإخوة، "احذروا لئلّا يسلبكم أحدٌ بالفلسفة والغرور [الخداع] الباطل، حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم، وليس حسب المسيح" (كولوسي 2: 8).

إنَّ مثل هذا "الخداع الباطل" هو تعليم الحبل بلا دنس بالعذراء مريم من حنّة، والذي يبدو للوهلة الأولى أنَّه يُعلّيها، لكنّه، في الواقع، يُقلّل من شأنها. ومثل كلّ كذبة، هذا التعليم هو بذرةٌ من "أبي الكذب" (يو 8: 44)، الشيطان، الذي نجح من خلاله في التجديف على العذراء مريم. ويجب أن تُرفَضَ معه جميعُ التعاليم الأخرى التي انبثقت منه أو تُشابهه. إنَّ السعي لرفع العذراء الفائقة القداسة إلى مساواةٍ مع المسيح، وإعطاء آلامها كأمٍّ عند الصليب أهمِّيَّةً مُساويةً لآلام المسيح، بحيث عانى الفادي و"الشريكة في الفداء" بالقدر عينه، بحسب تعليم البابويّين، أو القول إنَّ "الطبيعة البشريَّة لوالدة الإله في السماء مع يسوع الإله-الإنسان يكشفان معًا الصورة الكاملة للإنسان"[19] - هو أيضًا خداعٌ باطلٌ وإغواءٌ من الفلسفة. في المسيح يسوع "لا ذكرَ ولا أنثى" (غل 3: 28)، وقد فدى المسيحُ الجنسَ البشريّ كلَّه؛ ولذلك، في قيامته "رقصَ آدم فرحًا وابتهجت حوّاء" (قنداق الأحد باللَّحن الأوَّل والثالث)، وبصُعوده، رفع الربُّ الطبيعة البشريَّة كلَّها.

كذلك، أن تكون والدة الإله "مُكمِّلةً للثالوث القدّوس" أو "أقنومًا رابعًا"؛ وأن يكون "الابن والأمّ استعلانًا للآب من خلال الأقنومَين الثاني والثالث"؛ وأن تكون العذراء مريم "مخلوقة، ولكنّها أيضًا لم تعُد مخلوقة" – هذا كلُّه هو ثمر حكمةٍ باطلةٍ وكاذبةٍ لا تكتفي بما حافظَتْ عليه الكنيسة منذ زمن الرُّسل، بل تسعى لتمجيد العذراء القدّيسة أكثر ممّا مجَّدَها الله.

بذلك، يتحقّق كلام القدّيس إبيفانيوس القبرصيّ: "لقد سعى بعضُ السُّذَّج ولا يزالون، في رأيهم عن القدّيسة الدائمة البتوليّة، لوَضعِها مكان الله". غير أنَّ ما يُقدَّم للعذراء في سذاجةٍ يتحوّل إلى تجديف بدلًا من مدحٍ لها؛ والعذراء الكلِّيَّة الطهارة ترفضُ الكذب، لكونها أمّ "الحقّ" (يو 14: 6).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint John Maximovitch (n.d.), "The Error of the Immaculate Conception of Virgin." Posted online by John Sanidopoulos in *Orthodox Christianity Then and Now.* Link.

[19] الأرشمندريت س. بولغاكوف، "العلّيقة غير المحترقة"، ص 141.